الفصل الثالث

التفسير الاجتماعى لظاهرة الصعلكة

١

القبيلة :

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلى فى صورته العامة نرى أنه مجتمع قبلى ، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة ، عرفت كل منها باسم القبيلة .

وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية فى بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكلأ ، واتخذت منها موطناً لها ، فإذا ما ساءت ظروفها الجغرافية ، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة للحياة ، انتقلت منها إلى بقعة أخرى . أما إذا كان الموطن الأول أرضاً ذات خصب دائم — نظراً لظروف جغرافية مواتية — فإن القبيلة تستقر فيه استقراراً دائماً ، وتنشئ فيه قرية . وقد نزلت بعض القبائل العربية فى المدن القليلة المبعثرة فى أرجاء الجزيرة ، واتخذت منها مواطن لها ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الخاصة ، ومعاقلها الصغيرة ، وساداتها ، وشئونها الخاصة »[١] . ومرد ذلك إلى أن « رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة ، حتى لقد تؤدى الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها »[٢] . ولكن هذه القبائل — مع ذلك — كانت أكثر استقراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش فى المدن لا تقع تحت رحمة

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 2.

(٢) Ibid., p. 2.

(٣) ولعل من خير الأمثلة على هذا ما كان بين الأوس والخزرج فى يثرب ، وما كان بين عبد شمس وهاشم فى مكة .

الظروف الجغرافية مباشرة ، وإنما هى وسائل صناعية تخضع إلى حد بعيد لسيطرة الإنسان .

وهكذا نستطيع أن نقول إن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التى عرفها المجتمع الجاهلى فى باديته ومدنه .

وأساس تكوين القبيلة الأسرة ، ذلك أن المثل الأعلى للعربى أن ينجب أكبر عدد من الأبناء الأشداء حتى تصبح أسرته بين أقاربه ذات شأن يجعلهم يعدونه شيخهم الأكبر ، ويدعون أنفسهم أبناءه(١) ، ومن هنا يصح أن يقال إن القبيلة ليست سوى أسرة أكبر حجماً (٢) . « وبمضى الزمن تنقسم القبيلة إلى قبيلتين أو أكثر ، تضم كل منها سلالة أحد أبناء الجد الأكبر متسمية باسمه ، ثم تنقسم هذه القبائل مرة أخرى على أساس القاعدة نفسها ، وهكذا يستمر الانقسام »(٣) .

وقد أثار بعض الباحثين المحدثين جدلا حول تسلسل القبيلة عن طريق الأب ، أو ما يصح أن نطلق عليه « الانقسام الذكرىّ فى القبيلة العربية » ، وحاولوا أن يتلمسوا آثار الأمومة فى أنساب القبائل العربية ، ليثبتوا أن تسلسل القبيلة كان يحدث أحياناً عن طريق الأم(٤) ، ولكن الشىء الثابت عند النسابين العرب هو أن كل القبائل العربية « قبائل أبوية تكونت بانقسام جماعة أصلية انقساماً يعتمد على القرابة من ناحية الأصول الذكرية»(٥) ، والذى يعنينا هنا هو أن أفراد كل قبيلة كانوا يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد ، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ،

---

(١) Ency. of Islam,; art. Arabia, p. 373.

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

(٣) Ibid.; p. 4.

(٤) انظر فى هذا المصدر السابق ، وانظر أيضاً كتاب « الأمومة عند العرب » للمستشرق الهولندى G.A. Wilken. الذى ترجمه عن الفرنسية الأستاذ بندلى صليبا الجوزى . وانظر فى مناقشة هذه الآراء البحث الذى نشره الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ تحت عنوان « نظرية الأنساب فى الميزان » .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

متآلفة لا شذوذ بين أعضائها ، يعمل الجميع فى سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها .

وقد نشأ عن هذا الإيمان « بالأسرية » إيمان بوحدة اجتماعية تغلغل فى نفوس أبناء القبيلة ، نشأ عنه أن كان إحساسهم بالشذوذ فى هذه الوحدة إحساساً قوياً أصيلا . ومن هنا كان حرصهم على أن تظل هذه الوحدة قائمة كما هى ، نقية كما آمنوا بها ، يخرجون منها ما يرونه شوائب فيها ، ولا يُبقون إلا ما هو صالح للمحافظة عليها ، ولا يسمحون لغريب بأن يدخل فى مجموعها إلا بشروط خاصة ، ووفقاً لتقاليد معينة ، وداخل نطاق محدد ، وسنرى أن هذه المسألة تحمل أول المفاتيح الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

٢

إيمان القبيلة بوحدتها :

عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمراً مقدساً ، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة « دستور » ينظم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق .

والأساس الذى تقوم عليه نصوص هذا الدستور « العصبية » ، والمقصود بها « النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة »[١] ، أو هى إحساس الفرد برابطته القبلية ، وواجب تأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة[٢] .

وينص هذا الدستور فيما يتصل « بالسياسة الداخلية للقبيلة » على أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيما يجنيه أحدهم ، أو — كما يقول المثل العربى القديم — « فى الجريرة تشترك العشيرة »[٣] ، وعلى أن هذا « العقد الاجتماعى » بين الفرد

---

(١) مقدمة ابن خلدون /١٢٨ .

(٢) Ency. of Islam, Art. Arabia, p. 376.

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٧ .

وقبيلته قائم على أساس عاطفى بحت ، ولا مجال للتفكير فيه[١] ، وإنما هى النجدة التى تجيب دون أن تسأل[٢] ، وهى نجدة عملية سريعة لا تحتمل انتظاراً ، إجابتها تنفيذها[٣] ، وتنص « مواد » هذا الدستور على أن نجدة أبناء القبيلة لأخيهم واجبة سواء أكان جارماً أم مجروماً عليه ، فمبدؤهم الذى يسيرون عليه « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[٤] ، فجناية كل فرد منهم جناية المجموع ، يعصبونها برأس سيد العشيرة[٥] ، ولهم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به .

وفى مقابل هذا الحق الذى كان للفرد على القبيلة ، كان عليه واجب لها ، عليه أن يحترم رأيها الجماعىّ ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سبباً فى تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق[٦] ، ومن هنا « فرَضَتْ وحدَةُ القبيلة ، وتحمل المجموع لتبعات الفرد ، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من الإدارة البوليسية ، فإذا ارتكب فرد جرْماً رفضت القبيلة أن تتحمل نتائجه ، وإذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرَدُ منها »[٧] . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى

---

(١) لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا
(قريط بن أنيف فى حماسة أبى تمام ١/٩) .

(٢) إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأيــة حرب أم بأى مكان
(وداك بن ثميل المازنى فى حماسة أبى تمام ١/٦٤) .

(٣) ونجيب داعية الصباح بثائب عجل الركوب لدعوة المستنجد
(مضرس بن ربعى فى المصدر السابق ٣/١٠٢) .

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٢٤٢ . ولم يعرف العرب فى الجاهلية التأويل الإسلامى لهذا المثل من رد الظالم عن ظلمه وكفه عنه .

(٥) « والعرب تقول : سيد معمم يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه » (ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢٢٦) .

(٦) يقول أبو سفيان « لست أحالف قريشا ، أنا رجل منها ما فعلت فعلت » (الواقدى : كتاب المغازى /٢٠٠) .

(٧) Ency. of Islam; art. Arabia, pp. 375, 376.

الطريد « خليعاً [١] » .

ويحدث الخلع لأسباب متعددة ، تدور كلها حول هذا الأساس ، فقد يحدث أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ، وهنا تجد القبيلة نفسها فى موقف حرج ، فالقاتل والمقتول كلاهما من أبنائها ، ولكل منهما حق الحماية والنصرة . وهنا يضطر سادة القبيلة إلى أن يقوموا بدور الوسيط بين الفريقين ، حتى لا يؤدى الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها ، « فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكمّلة ، ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوى قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهى ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فنرمى به نحو السماء ، فإن رجع إلينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها » ، ونتيجة هذا « الإجراء التمثيلى » معروفة طبعاً ، فما رجع ذلك السهم قط إلا نقياً ، وهنا يمسح القوم لحاهم علامة للصلح ، ويصالحون على الدية [٢] ، وهكذا تحل المشكلة هذا الحل السلمى الذى يحفظ على القبيلة وحدتها . ولكن المشكلة تظل قائمة إذا رفض أولياء الدم الدية ، وأصروا على الثأر ، وهنا تحل المشكلة على أحد وجهين : إما أن يُقتل القاتل بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته [٣] ، حتى تترك لأولياء الدم حرية التصرف

---

(١) فى لسان العرب : مادة (خلع) . والخليع : الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيتبرءون منه ومن جنايته ، ويقولون إذا خلعناه فلاذا فلا نأخذ أحد بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التى يجنيها . » وفى النهاية لابن الأثير (المادة نفسها) « كانت العرب يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والإعانة ، وأن يؤخذ كل منهم بالآخر ، فإذا أرادوا أن يتبرءوا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلى الناس ، وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليعا أى مخلوعا ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم ، فكأنهم قد خلعوا اليمين التى كانوا قد لبسوها معه ، وسموه خلعا وخليعا مجازا واتساعا» . وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) «وكان الرجل فى الجاهلية إذا غلبه ابنه ، أومن هومنه بسبيل ، جاء به إلى الموسم ، ثم نادى : يأيها الناس هذا ابنى فلان ، وقد خلعته ، فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب ، يريد قد تبرأت منه » .

(٢) البغدادى : خزانة الأدب ٢/١٣٧ . ويسمى هذا السهم سهم الاعتذار ، كما يسمى أيضاً العقيقة .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 25.

بدون أن تتعرض وحدتها للتداعى ، أو يَخلعَ هو نفسه ، فيفر من قبيلته نجاةً بحياته . وعلى كلا الوجهين تكون القبيلة قد تصرفت فى حدود « دستورها » الذى ينص على أنه «يجب على أهل القاتل ألا يحموه إذا قتل أحداً من دمه »[١]، وذلك لأن رابطة القبيلة أقوى من رابطة الأسرة[٢] .

وقد يحدث أن تتعدد جرائر أحدأفراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته ، لأن فى هذا تكليفاً لها لا تطيقه ، وعبئاً ثقيلا عليها تنوء به ، وتهديداً دائماً لسلامتها ، وإراقة لدماء أبنائها بدون مبرر ، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد ، مفضلة أن تضحى بفرد واحد على أن تضحى بجماعة من أفرادها ، ملقية عليه تبعات جرائمه ، يتحملها هو وحده ، فتخلعه[٣] .

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية ، حتى يصبح وجوده بينها وصمة فى جبينها ، وسبة فى مجدها وشرفها ، وحطًّا من قدرها بين القبائل ، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه ، ضرره أكثر من نفعه ، فتتبرأ من نسبته إليها ، حرصاً على سمعتها ، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسىء إليها فرد ، فتخلعه[٤] .

هذه أهم الجرائم التى كانت القبيلة تحكم على من يرتكبها من أفرادها بالخلع ، وهى كلها تدور حول محور واحد ، هو خروج الفرد على وحدة

---

(١) Ibid., p. 43.

(٢) Ibid., p. 4.

(٣) فى أخبار امرئ القيس أنه لما خرج مطالباً بدم أبيه نزل بعامر بن جوين « وعامر يومئذ أحدا لخلعاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائره » (الأغانى ٩/٩٥ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/٢٤) . وفى أخبار عبد الله بن جدعان أنه كان « شريرا فاتكا ، لا يزال يجنى الجنايات ، فيعقل عنه أبوه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبدا ، لما أثقله به من الغرم ، وحمله من الديات » (السهيلى : الروض الأنف ١/٩٢) .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 49.

وفى أخبار البراض بن قيس الكنانى أنه « كان سكيرا فاسقا ، خلعه قومه ، وتبرءوا منه » (الأغانى ١٩/٧٥) . وفى معلقة طرفة حديث عن تهالكه على الخمر واللذات واستهتاره بكل شىء حتى تحامته العشيرة كلها ، وأفرد أفراد البعير المعبد .

القبيلة، وتصرفه تصرفاً فردياً بدون رضاها أو الرجوع إليها ، فتجد القبيلة نفسها أمام فرد « شاذ » خرج على إجماعها ، ورفض السير فى ركابها ، وترى أنه بتصرفه هذا قد ترك لها حرية التصرف ، وأنها أصبحت فى حل من ذلك العقد الاجتماعى الذى يربطها به ، فلم تعد مسئولة عما يفعل ، فتتبرأ منه ، وتطرده من حماها ، وتسحب منه « الجنسية القبلية » ، وتعلن أنها قد خلعته ، وأن صلته بها قد انقطعت ، وحمايتها له قد انتهت ، وتضامنها معه قد انحلت عقدته .

وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلان رسمى يذاع على الناس فى المواسم والأسواق ، ليكون فى ذلك إشهاد لهم عليه[١] ، وقد يبعثون منادياً بذلك[٢] ، وقد يكتبون به كتاباً[٣] ، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته « فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه »[٤] .

وهنا يجد الخليع نفسه أمام مشكلة خطرة ، هى مشكلة الحياة أو الموت . لقد سحبت منه « الجنسية القبلية » ، ورفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعد أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يفر إلى الصحراء ليلاقى مصيره فى البادية القاسية فقيراً مفرداً ، لا اعتماد له على أحد ، ولا على شىء ، وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش فى جواره ، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلى ، وهو « قانون الجوار »[٥] .

وقد قدس المجتمع الجاهلى هذا القانون تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به

---

(١) انظر الزمخشرى : أساس البلاغة ، مادة (خلع) . وقد خلعت خزاعة قيس بن الحدادية « بسوق عكاظ ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه » (الأغانى ١٣/٢ بولاق) .

(٢) خلع بنو سهم فى الجاهلية عمرو بن العاص ، كما خلع بنو مخزوم عمارة بن الوليد ، إذ هما فى الحبشة ، خشية أن يعتدى أحدهما على الآخر فتؤخذ عشيرته به ، « وتبرأ كل قوم من صاحبهم وما جر عليهم ، فبعثوا منادياً ينادى بمكة بذلك » (الأغانى ٥٧/٩) .

(٣) انظر جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ١٩/٤ ، وانظر أيضاً :

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 146 = 242.

(٤) الأغانى ٢/١٣ (بولاق) . وانظر أيضاً ابن حبيب : المحبر /١٩٥ .

(٥) فى القاموس المحيط (مادة الجور) : الجوار أن تعطى الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره ، والجار أيضاً الحليف .

العربى أن يكون ملاذاً لكل خائف ، وملجأ لكل طريد ، لأن فى ذلك اعترافاً بقوته ومروءته وكرمه ، وهى فضائل يعتز كل عربى بأن تُنْسَب إليه ، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلعاء وحمايتهم (١) .

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف — بطبيعة الحال — وفقاً للظروف ، فكانت أحياناً مؤقتة ، وكانت أحياناً أخرى دائمة ، بل وراثية ، وفى بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على عدو معين فقط ، وفى حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، وكان هذا يعنى أن يدفع المجير إذا مات جاره ، وهو فى جواره ، دية لأسرته (٢) ، « وأقوى هذه الحالات على الإطلاق هى تلك التى يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم » (٣) .

ومن هنا كان العرب يسمون جارهم هَدْيَهم أوهديّهم «يحرم عليهم منه ما يحرم من الهَدْى » (٤) ، وهى تسمية تشعرنا بتلك القداسة التى كانت للجوار فى نفوس العرب ، فهو عندهم شىء مقدس ، كأنه قربان يتقربون به إلى الآلهة . ومما يلقى ضوءاً على هذه الفكرة أن بعض المكيين كانوا يُقْسِمون على حمايتهم لجارهم فى الكعبة ، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام ،

---

(١) كان الزبير بن عبد المطلب فى مكة «ينزل عليه الخلعاء» (ابن قتيبة : الشعر والشعراء/٢٢٩) وقد لجأ مطرود بن كعب الخزاعى « إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف لجناية كانت منه ، فحماه وأحسن إليه » (المزربانى : معجم الشعراء/ ٣٧٥) ، ونزل البراض الكنانى بعد خلعه « على حرب بن أمية فحالفه ، فأحسن حرب جواره » (الأغانى ١٩/٧٥) ، وكان حاجز الأزدى حليفاً لبنى مخزوم (الأغانى ١٢/٤٩ بولاق) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 50.
وانظر فى الإجارة من الموت قصة الأعشى مع عامر بن الطفيل فى الأغانى ٩/١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.
وفى أخبار أوفى بن مطر المازنى أن رجلا جاوره « ومعه امرأة له ، فأعجبت قيسا أخاه ، فجعل لا يصل إليها مع زوجها ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك أوفى ، فقتل قيسا أخاه بجاره» (ابن حبيب : المحبر /٣٤٨) .

(٤) لسان العرب : مادة (هدى) : والهدى : القربان .

ولا يستطيعون التحلل منه إلا فى الكعبة أيضاً[١] .

وفى مقابل هذه الحقوق التى كانت للجار ، كانت عليه واجبات لمن أجاروه . وتتلخص هذه الواجبات فى أن يحترم الجوار ، ولا يسىء إلى من أجاروه ، لا فى أشخاصهم ولا فى سمعتهم ، لا فى حياتهم المادية ولا فى حياتهم المعنوية . فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق فى أن تخلعه ، وتتحلل من التزاماتها له . ومن هنا كانت تتعدد استجارة الخليع بالقبائل فى بعض الأحيان[٢] .

ومع ذلك فلم تكن حياة هؤلاء الخلعاء فى جوار من استجاروا بهم طيبة دائماً ، فقد كان يحدث أحياناً أن يسىء المجير معاملة جاره ، ويستغل تلك الظروف الحرجة التى يمر بها فيغدر به[٣] ، وكان يحدث أحياناً أخرى أن يعجز المجير عن رد العدوان عن جاره ، إما لضعفه وإما لعدم اهتمامه به[٤] . وعلى كل حال فحسب هؤلاء المستجيرين هواناً لنفوسهم أن ديتهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح[٥] .

وحين نقف لنتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين : طائفة استقر بها المقام فى القبيلة التى أجارتها ، فاندمجت فى مجتمعها ، وطابت لها

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

(٢) فى أخبار البراض أنه بعد أن خلعه قومه لجأ إلى بنى الديل ، فشرب فيهم « فخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشا فنزل على حرب بن أمية فحالفه ، فاحسن حرب جواره ، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه » (الأغانى ١٩/٧٥) .

(٣) كان أبو جندب الهذلى جارا لبنى نفاثة « جاورهم حينا من الدهر ، ثم إنهم ذكروا أن يغدروا به » (السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٩٣) .

(٤) استجار أبو الطمحان القينى بعبد الله بن جدعان التيمى « ومعه مال له من الإبل ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ، فانتحروا ثلاثة من إبله » ، ثم عاودوا عليها الكرة ، « فاستاقوها كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخ ، فلم يكن فيه ولا فى قومه قوة ببنى سهم ، فامسك عنهم ولم ينصره » (الأغانى ١٦/٦٩) . واستجار محرز بن المكعبر الضبى ببنى عدى من تميم « فاغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسعوا له ، فوعدوه أن يفعلوا » ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى بعض بنى مازن » (شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٤/١٥) .

(٥) الأغانى ٣/١٩ سطر ١٨ ، ص ٢٦ سطر ٤ ، ٥ .

الحياة الجديدة ، وشاركت فى ضروب نشاطها ، وسلكت سبل العيش معها فى هدوء واستقرار ، وطائفة أخرى لم تزل فى نفوسها بقية من تمرد ، رفضت هذا الفناء الجديد فى شخصية القبيلة التى أجارتها ، فكانت حياتها فيها امتداداً لحياتها القديمة فى القبيلة التى خلعتها .

ويخرج هؤلاء « الشُّذَّاذ »[١] على حياتهم الجديدة ، ليجدوا فى الصحراء متسعاً لنشاطهم المتمرد الذى لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم فى الحياة بأسلوبهم الذى اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قوتهم ، وأغراهم على هذا أنهم كانوا واثقين من أنهم « إذا أخفقوا فلن يعدموا أن يجدوا سيداً أو حيًّا يستقبلهم ويضمن لهم ملجأ »[٢] . ويبدو أن هؤلاء الشذاذ المتمردين كانوا ينظرون إلى القبائل التى يستجيرون بها على أنها « نقط ارتكاز » لنشاطهم ، وإلى حياتهم فيها على أنها فترات راحة فى حياتهم العنيفة .

وحين نعود إلى أخبار صعاليك العرب لننظر فيها على ضوء هذا « المصباح الاجتماعى » نجد أن طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ .

فقد كان قيس بن الحدادية « صعلوكاً خليعاً »[٣] خلعته قبيلته خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته فى قتل أحد أفراد قبيلتهم ، وعجزوا عن دفع الدية ، ففروا هاربين ، « فنزلوا فى فراس بن غَنْم ، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلا ، فهربوا ، فنزلوا فى بجيلة على أسد بن كُرْز فآواهم ، وأحسن إلى قيس ، وتحمل عنهم ما أصابوا فى خزاعة وفى فراس »[٤] وفى خبر آخر أنه بعد خلعه « نزل عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عدىّ بن عمرو بن خالد ،

---

(١) فى لسان العرب (مادة شذ) : « وقوم شذاذ إذا لم يكونوا فى منازلهم ولا حيهم . . . وشذاذ الناس الذين يكونون فى القوم ليسوا فى قبائلهم ولا منازلهم » .

وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) « شذ عن الجماعة شذوذا انفرد عنهم ، وهو من شذاذ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم » .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 194.

(٣) الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .

(٤) المصدر السابق / ٤ ، ٥ .

فآوه وأحسنوا إليه »[١] . والظاهر أن هذا كان قبل استجارته ببنى فراس .

وألف قيس بعد خلعه عصابة من صعاليك العرب جمع فيها « شذاذاً من العرب وفتاكاً من قومه »[٢] ، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفتاك هم أولئك الذين اشتركوا معه فى حادثة القتل التى كانت سبباً فى خلعه . وكان أول ما فعلته هذه العصابة أن حاولوا الانتقام لأنفسهم من أولئك الذين كانوا سبباً فى خلعهم ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجلا واستاقوا أموالهم[٣] ، وهكذا أثبت لقومه الذين خلعوه أنه قادر على أن يقف فى وجههم برغم أنه « خليع مطرّد » ، على حد تعبيره فى بعض أبياته[٤] ، وأنه لا يتورع عن قتل أى فرد من قومه وقف فى طريقه ، وأنه قادر على أن يسلبهم تلك الأموال التى كان حرمانه منها سبباً فى عجزه عن دفع الدية ثم فى خلعه نتيجة لذلك . ومع ذلك فقد كان قيس نبيلا فى موقفه من أولئك الذين لم يكن لهم ضلع فى خلعه ؛ فقد لحقه بعد هذه الغارة « رجل من قومه كان سيداً ، وكان ضلعه مع قيس فيما جرى عليه من الخلع يقال له ابن محرّق ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه ، فقال : أما ما كان لى ولقومى فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعْتَوَرته أيدى هذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه ، فرد سهمه وسهم عشيرته »[٥] . وهكذا كان قيس الصعلوك « سيداً » فى موقفه ، فرق بين أولئك الذين كانوا سبباً فى خلعه وبين سائر عشيرته ممن لم يكن لهم يد فى هذا الخلع ، وفرق بين مركزه زعيماً لعصابة لأفرادها حق فى الغنيمة لا يجوز حرمانهم منه ، وبين مركزه طالباً الانتقام من جماعة معينة .

وظل هذا الصعلوك المتمرد يجمع الخلعاء والشذاذ ويغير بهم ، حتى قتل

---

(١) المصدر السابق /٥ .

(٢) المصدر نفسه /٢ .

(٣) المصدر نفسه /٢ .

(٤) المصدر نفسه /٥ .

(٥) المصدر نفسه /٢ — والضلع — بفتح الضاد — الميل . واعتوروا الشىء : تداولوه .

وهو خليع قتلة كان فيها شجاعاً حتى النهاية [١] ، وقبل أن يوشك سراج حياته على الانطفاء تذكّر تلك الحادثة التى كانت سبباً فى تلك الحياة القاسية التى عاشها طريداً مشرداً ، حادثة خلعه ، فأخذ ينشد وهو يقاتل نشيداً فيه حسرة ، وفيه شجاعة واعتداد بالنفس [٢] ، حسرة على حياته التى ذهبت مع الريح ، بعد أيام شباب جميلة قضاها فى حِمَى القبيلة ، فى اللهو تارة ، وفى الجد تارة أخرى [٣] ، عضواً عاملا فى مجتمع القبيلة ، يدافع عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويهجو أعداءها [٤] ، بل يقودها أحياناً فى شجاعة إلى مواقع النصر [٥] .

وكذلك كان أبو الطَّمَحَان القينى من هذه الطائفة من الخلعاء الشذاذ ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه ، ولكنى أرجح أنه خلع لسوء أخلاقه . ويصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقاً » [٦] ، ويقدمه صاحب الأغانى بأنه « أدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما » [٧] ، ويصفه بعض رواة الأغانى بأنه « كان فاسقاً خارباً » [٨] ، وقد سئل عن « أدنى ذنوبه » كأنه كان معروفاً بكبائره ، فاندفع يقص فى استهتار قصة ليلة ارتكب فيها أربع موبقات [٩] ، فإذا كانت هذه أدنى ذنوبه فليس من شك فى أنه كان مستهتراً استهتاراً فاضحاً .

وقد تقلبت الأيام بأبى الطمحان تقلباً عنيفاً ، فقضى حياة مضطربة ،

---

(١) الأغانى ١٣/٨ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق /٨ ، وانظر أيضاً كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب ص ٦ .

(٣) فيوماى يوم فى الحـديد مسربلا ويوم مع البيض الأوانس لاهيا
(الأغانى ١٣/٨ بولاق) .

(٤) انظر أخبار ذلك فى المصدر السابق /٣ ، ٤ ، ٥ .

(٥) انظر ذلك فى المصدر نفسه ص ٣ .

(٦) الشعر والشعراء /٢٢٩ .

(٧) الأغانى ١٣٠/١١ (بولاق) .

(٨) المصدر السابق /١٣٢ .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢٢٩ ، والأغانى ١٣٢/١١ (بولاق) .

لم تكد تعرف طعم الاستقرار إلا فى فترات متقطعة ، متنقلا بين أحياء العرب ، مستجيراً بها ، لا يكاد يستقر فى جوار حتى يحدث ما يعيده إلى حياة الاضطراب مرة أخرى . وهو يشكو فى شعره مر الشكوى من غدر من يستجير بهم :

أَجَدَّ بنى الشرق أَولِعَ أنني   متى أَستجرْ جارا وإنْ عَزَّ يغْدِرِ
إذا قلت أَوْفى أدركتْه دَرُوكَةٌ   فيا مُوزِعَ الجيران بالغى أقصِرِ[١]

ويبدو أن شاعرنا الصعلوك كان سيىء الحظ مع جيرانه ، فقد كان مجاوراً فى بطن من طيئ يقال لهم بنو جديلة ، « فنطح تيس له غلاماً منهم فقتله » فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى يؤدى ديته مائة من الإبل ، فاستنجد بنزياه ، مصوراً فى أبيات له ذل موقفه ، وحسرته على بعده عن قومه[٢]

ويشاء سوء حظه مرة أخرى أن تقتتل طيئ فيما بينها ، وتتحزب حزبين ، وينهزم حزب جديلة الذى كان مجاوراً فيهم ، ويؤسر أبو الطمحان فى هذا القتال « أسره رجلان من طيئ واشتركا فيه » ، فاشتراه منهما أحد أفراد القبيلة ، بعد ما بلغته أبيات له يمدح فيها قومه ، فمدحه أبو الطمحان بقصيدة ، فجز الطائى ناصيته وأعتقه[٣] ، وهكذا أنقذه شعره من سوء حظه مرتين.

وحدث أنه استجار مرة بعبد الله بن جدعان التيمى ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ونهبوا إبله كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخه ، ولكنه لم يستطع أن ينصره ، لأنه لم يكن فيه ولا فى قومه قوة ببنى سهم ، فأنشد أبو الطمحان أبياتاً يحن فيها إلى وطنه وأهله وأيامه بينهم ، ويندب سوء حظه ، ثم ارتحل عنهم[٤] .

---

(١) الأغانى ١١/١٥١ (دار الكتب) ، ١٦/٦٩ . ورواية البيتين فى هذا الموضع الأخير تختلف بعض الاختلاف اللفظى عن روايتهما فى الموضع الأول ، ولكنه اختلاف لا يغير المعنى أى تغيير .

(٢) الأغانى ١١/١٣٣ (بولاق) .

(٣) المصدر السابق/١٣٢ و ١٣٣ ، وانظر بيتاً له فى مدح بنى لأم فى الشعر والشعراء/٢٣٠

(٤) الأغانى ١٦/٦٩ .

ويبدو أن سوء حظه مع جيرانه قد فارقه بعد ذلك ، فقد نزل على الزبير ابن عبد المطلب بن هاشم بمكة ، فطال مقامه لديه ، ولكنه كان كثير الشوق إلى أهله ، شديد الحنين إليهم ، فاستأذن الزبير فى الرجوع إليهم ، « وشكا إليه شوقاً لهم فلم يأذن له ، وسأله المقام ، فأقام عنده مدة » ، ثم عاوده الحنين مرة أخرى ، فأتاه وأنشده أبياتاً يصور فيها هذا الحنين الجارف ، فلما أنشده إياها أذن له فانصرف[١] .

ولكن يظهر أن تمرد أبى الطمحان لم يفارقه بعد ذلك ، فقد جنى جناية وهرب من بلاده ، « ولجأ إلى بنى فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك ابن سعد أحد بنى شَمَّخ ، فآواه وأجاره ، وضرب عليه بيتاً ، وخلطه بنفسه ، فأقام مدة ، ثم تشوق يوماً إلى أهله وقد شرب شراباً ثمل منه ، فقال لمالك : لولا أن يدى تقصر عن دية جنايتى لعدت إلى أهلى ، فقال له : هذه إبلى فخذ منها دية جنايتك ، وازدد ما شئت ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره مفارقة موضعه ، ولم يأمن على نفسه » ، فأتى مالكاً وأنشده أبياتاً يمدحه فيها مدحاً قويّاً ، هو من غير شك صادر من أعماق نفسه ، يصور تقديره لذلك السيد النبيل ، ويصرح له فيها بأنه قرر البقاء فى جواره ، فقد أصبح كأنه واحد منهم :

وقد عَرَفَتْ كلابكمُ ثيابى كأنّى منكمُ ونسيتُ أهلى

« فقال مالك : مرحباً فإنك حبيب ازداد حبًّا ، إنما اشتقت إلى أهلك ، وذكرتَ أنه يحبسك عنهم ما تطالَب به من عقل أو دية ، فبذلتُ لك ما بذلتُ وهو لك على كل حال ، فأقم فى الرحب والسعة ، فلم يزل مقيماً عندهم حتى هلك فى دارهم[٢] » بعد أن امتدت به الحياة حتى بلغ أرذل العمر[٣] .

---

(١) الأغانى ١١/١٣٤ (بولاق) ، والشعر والشعراء /٢٢٩ .

(٢) الأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) .

(٣) يذكر أبو حاتم السجستانى أنه عاش مائتى سنة (كتاب المعمرين /٦٢) .

وهكذا قضى هذا الصعلوك السيئ الحظ حياته الطويلة مشرداً حتى تداركته يد هذا السيد النبيل فى أخريات أيامه ، ولكن أمنيته الكبرى — مع ذلك — لم تتحقق ، فقد قُضِيَ عليه أن يموت بعيداً عن أهله الذين طالما استبد به الحنين إليهم .

هذه هى الصورة التى استطعت أن أكونها عن هذا الجانب من حياة أبى الطمحان من مجموعة أخباره القليلة المتناثرة التى لم تحاول مصادرها أن ترتبها ترتيباً يعطينا صورة كاملة متصلة لحياته الطويلة المضطربة ، وهى صورة شخص « بوهيمى » قلق ، مفرط الحساسية ، قوى العاطفة ، سيئ الحظ ، لولا أن تداركته العناية الإلهية فى أخريات أيامه ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وإن لم ير النبى صلى الله عليه وسلم[١] ، ولكنه ظل خبيث الدين فى إسلامه ، كما كان خبيث الدين فى جاهليته .

٣

إيمان القبيلة بجنسها :

كما آمنت القبيلة بوحدتها هذا الإيمان العميق الذى ترتب عليه ظهور هذه الطائفة من التقاليد الاجتماعية التى تحدثنا عنها ، آمنت بجنسها ، وذلك لأن من الأسس التى قامت عليها القبيلة العربية إيمان أبنائها « برابطة الدم » ، أى أنهم جميعاً من دم واحد .

وقد أثار بعض المستشرقين تشكيكاً فى « رابطة الدم » هذه : أهى رابطة حقيقية أم رابطة مُدَّعاة[٢] ؟ وليس يعنينا هنا هذا التشكيك ، لأن

---

(١) يقول ابن حجر عنه إنه « أدرك الإسلام » (الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٦٦) ، ويضعه فى القسم الثالث من كتابه فيمن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره (ص ٥٣ من الجزء نفسه ، وانظر مقدمة الكتاب ١/٤) .

(٢) انظر : Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 1, 62; & Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 159.

مناقشته والانتهاء إلى رأى فيه إنما تكون فى مجال دراسة أصول القبائل العربية وأنسابها ، وليس هنا مجال هذه الدراسة ، وإنما الذى يعنينا هنا هو أن « كل الأفراد الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كانوا يعدون أنفسهم من دم واحد »[١] ، وأنهم جنس واحد ، متشابه العناصر والمقومات ، لا يختلف أفراده إلا بمقدار ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة ، بل إن بعض الباحثين المحدثين يرى أن أفراد الحى الواحد من القبيلة كانوا لا يعدون أنفسهم من « دم واحد » فحسب ، ولكن من « لحم واحد » أيضاً ، ومن ملاحظاته التى يؤيد بها رأيه ما تستعمله اللغة العربية من لفظة « اللُّحمة » فى التعبير عن معنى القرابة[٢] ، ولعل فيما عبر به العرب عن بعض أشكال جماعاتهم بالبطن والفخذ ما يصور ذلك الإحساس الذى كان يحسه العربى بتلك الصلة « الجسدية » التى تربطه بجماعته .

وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس فى نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازه ، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضُلُهم قبيلة أخرى[٣] ، وهم يَفْضُلون كل القبائل[٤] ، آباؤهم أشرف آباء[٥] ، وأمهاتهم أكرم أمهات[٦] ، وهم أجدر الناس بأن يكونوا خير الناس[٧] ، ولعل فى هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يفسر

---

(١) Smith; Kinship & Marriage in Early Arabia, p. 25.

(٢) Ibid.; p. 175.

(٣) حُديا الناس كلهم جميعا مقارعة بنيهم عن بنينا
(عمرو بن كلثوم فى معلقته) . ويقول التبريزى : « قالوا معنى حديا الناس كما تقول واحد الناس ، وقيل معناه نحن أشرف الناس » . (شرح القصائد العشر /٢٣٢) .

(٤) إنى لمن قوم بنى الله مجدهم على كل باد فى الأنام وحاضر
(المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٧) .

(٥) إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
(حماسة أبى تمام ١/٥١) .

(٦) وأماتنا أكرم بهن عجائزا ورثن العلا عن كابر بعد كابر
(المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٧) .

(٧) ونحن بنو ماء السماء فلا نرى لأنفسنا من دون مملكة قصرا
(حماسة أبى تمام ١/١٣٠) .

تلك المنافرات التى امتلأت بها أخبار العصر الجاهلى ، وذلك الفخر الذى تدوّى أصداؤه فى قصائد شعرائه . ومما شجع على هذا الإيمان بامتياز الجنس فى نفوس أبناء القبيلة صلات العداوة بين القبائل المختلفة التى كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، فقد « كانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى »(١) .

وقد نشأ عن هذا « الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه » طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية فى القبيلة .

والناظر فى تكوين القبيلة الاجتماعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجتماعية : الصرحاء ، والعبيد ، والموالى .

أما الصرحاء فهم فى عرف القبيلة أبناؤها ذوو الدم النقى الذى لا تشوبه شائبة ، الذين ينتمون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها . ومنهم تتكون الطبقة « الأرستقراطية » فى القبيلة ، وفيهم رياستها ، وبيوتات الشرف فيها . وتعتمد هذه « الأرستقراطية » أول ما تعتمد على النسب(٢) ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقياً ، وعلى أن تجمع الشرف من « كلا طرفيه » : الآباء والأمهات ، فلا يكون فى أحد طرفى الشرف ما يشينه(٣) .

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربى ، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون فى أيدى القبيلة فى حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربى ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية .

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٢) انظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الحادى عشر والثانى والثالث عشر من الباب الثانى من الكتاب الأول /١٣١ — ١٣٥ .

(٣) الأغانى ١١/٨٦ (بولاق) . ويقول معقل بن خويلد :

بنـــو فالج قومى وهم ولدوا أبى ... وخالى ثمال الضيف من آل فاتك

(السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٢١) .

وقد قلنا إن الصلات بين القبائل العربية كانت صلات خصام ، ومن هنا كانت الحرب دائماً قائمة بينها ، «وكان سبي الرجال والنساء على السواء أمراً أساسيًّا فى كل غارة»[١] ، ومن الطبيعى أن يكون تعرض النساء للسبي أكثر من تعرض الرجال[٢] ، فإن ضعف المرأة فى هذه الحالة من الصراع المستمر فى الجزيرة العربية يجعلها دائماً فى مركز الضحية[٣] . وبقدر ما كان العربى يأنف من قتل سبيته لما فيه من نزول بمروءته ، كان حرصه على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن فى هذا إهانة لأعدائه . وقد كان يحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحى ، وهم خلوفٌ ، فيؤْخذْنَ سبايا[٤] . ومن هنا « كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية فى فنهم الحربى »[٥] ، ومن هنا أيضاً كانت المقدرة على حماية « الظعينة » عنصراً أساسيًّا من عناصر البطولة العربية جعلهم يطلقون على بعض أبطالهم لقب « حامى الظعينة » أو « فارس الظعينة »[٦] .

وقد كان يحدث أحياناً أن تبيع القبيلة أساراها ، فقد اشتعلت حرب بين لحيان وخُنَاعة « فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً ، فإذا أصابت بنو لحيان من خناعة أحداً باعوه »[٧] ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضاعة « أصابه سباء فى الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها

---

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.

وقد وفد سميفع بن ذاكور الكلاعى على عمر بن الخطاب « وله أربعة آلاف أهل بيت قن من العرب مماليك أسرهم فى الجاهلية » (نقائض جرير والفرزدق ١/٤٦) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

وأخبار سبي النساء فى العصر الجاهلى كثيرة . (انظر : الأغانى ٣/٧٥ — ٧٨ ، ١١/١٧٢ بولاق ، ١٩/١٥٨ ، ونقائض جرير والفرزدق ١/١٣ ، وديوان عروة /١٦٩ ، ١٧٠) .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 280.

(٤) انظر نقائض جرير والفرزدق ١/١٤٥ ، والأغانى ٢١/٦٣ ، ٦٤ .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

(٦) القالى : الأمالى ٢/٢٧١ .

(٧) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٠٠ .

بنى معن ، فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسر فأخذوا زيداً، فقدموا به سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل اشتراه من سوق حُباشة »[١] ، وكانت أم عمرو بن العاص « من بنى عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ »[٢] ، وفى أخبار خناعة أنهم أسروا سيداً من سادة العرب « فباعوه بمكة »[٣] .

ومن هذا نرى أن بيع القبائل العربية لأساراها كان منتشراً فى أسواق مكة بالذات ، ويرينا ديوان الهذليين أنه كانت بمكه تجارة منتظمة فى الرقيق تروّجها الحروب التى كانت لاتنقطع بين القبائل المجاورة[٤] . وكان يحدث أحياناً أن يرد إلى أسواق مكة رقيق من أسرى العرب من المناطق البعيدة عنها ، فقد كان أبو صُهيب ، سنان بن مالك ، ينزل بأرض الموصل عاملا لكسرى على الأبلة ، « فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيباً ، وهو غلام صغير ، فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان »[٥] .

أما العنصر الآخر الذى شارك فى تكوين طبقة العبيد فى القبيلة العربية ، وهو العنصر غير العربى ، فقد كان مصدره البلاد المجاورة لجزيرة العرب كالحبشة وما حواليها من الأمم ، فكان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم فى أسواقها بالمواسم[٦] ،ولم يكن ينظر إلى المسألة من جانبها الإنسانى ، وإنما هى تجارة كسائر التجارات تتخذ منها القبائل وسيلة للربح ، فقد « كانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر

---

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢/٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/١١٦ .
(٣) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١١٦ .
(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.
(٥) ابن قتيبة : المعارف /١١٤ .
(٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

السلع»[١] وكانت هذه التجارة منتشرة بالذات فى بنى تيم[٢] ، وكان عبد الله ابن جدعان التيمى رئيس قريش فى حرب الفجار من أشهر تجار الرقيق فى الجاهلية[٣] .

وكان هؤلاء الأرقاء المجلوبون كثيرين فى المجتمع الجاهلى ، وكان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يخلو منزله منهم ، فقد كان لعبد الله بن أبى ربيعة مثلا عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كبيراً ، حتى لقد عرض على النبى صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم فى غزوة حنين[٤] .

وأما الطبقة الثالثة فى المجتمع القبلى ، وهى طبقة الموالى ، فقد كانت تتألف من العتقاء ، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى ، وعاشوا فى حمايتها ، أو حماية رئيسها أو بعض ذوى النفوذ فيها[٥] . أى أن طبقة الموالى فى القبيلة العربية كانت ترجع إلى أصلين : أحرار ، وعبيد ، أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة ، أو إلى أحد أفرادها ، من خلعاء القبائل ، طالبين الحماية والنصرة ، وكانوا يسمون أحياناً « الحلفاء » ، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء[٦] .

وهذه الطبقة كانت تؤلف طبقة مكانتها الاجتماعية بين الطبقتين السابقين ،

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

(٢) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 167 = 263.

(٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢١ .

(٤) الأغانى ١/٦٥ . وقد اتخذ بعض الشعراء من عبيد آل أبى ربيعة مادة لفنهم (انظر البيت الوارد فى المصدر نفسه ٤/٦٤ لأبى ذؤيب الهذلى الذى يشبه فيه حمار الوحش بعبد منهم) .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 47, 48.

(٦) فى لسان العرب (مادة ولى) : « والمولى الحليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك . . . والمولى المعتق انتسب بنسبك » ، وهكذا يشير هذا المعنى اللغوى لهذين النوعين الاجتماعيين من طبقة الموالى .

فالمولى عند العرب وسط بين العبد والحر[١] « أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد[٢] » .

آمنت القبيلة العربية بهذه الطبقات الاجتماعية ، وعرفت لكل طبقة منزلتها ، وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وتعارفت على الصلات التى تكون بين أفراد كل طبقة وأفراد الطبقتين الأخريين .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد كانت فى حالة اجتماعية سيئة فى هذا المجتمع الأرستقراطى[٣] الذى يؤمن بوحدته وبجنسه إيماناً عميقاً ، والذى يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معانى الطغيان والجبروت والاستبداد أقوى تمثيل ، حتى لنجد أن هذه الطبقة كانت من أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام الذى ضمن لهم حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بساداتهم تنظيماً إنسانياً عادلا ، والذى أتاح لهم فرصاً كثيرة للعتق والتحرر. وليس من شك فى أن حياة هذه الطبقة كانت سلسلة من الذل ، تبدأ منذ أن يشترى السيد عبده ، ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك الأعمال التى يأنف السادة من القيام بها ، وهى تلك التى سميناها « الأعمال الفرعية فى المجتمع القبلى » ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبيده كما يرثون سائر متاعه إلا إذا كان قد أوصى لهم بحريتهم بعد موته[٤] .

ومع ذلك ، ومع حرص العربى على الشرف فى كلا طرفيه ، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربى من أمته ، ولكن المجتمع الجاهلى كان يرى فى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسما خاصًّا ، فسمى ابن العربى من الأمة « هجيناً »[٥] ، ومن الطبيعى ألا ينظر إلى هذه الصلة

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢١ .

(٢) المصدر السابق /٢٤ .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 198, p. 277.

(٤) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤/٢٠ .

(٥) فى القاموس المحيط (مادة هجن) . « والهجين : اللئيم ، وعربى ولد من أمة أومن أبوه خير من أمه » ، ويقول المبرد « والهجين عند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة ، والأصل فى ذلك أن تكون أمة » (الكامل /٣٠٢) .

نظرة احترام ، فقد كانت كل أمة عندهم تدعى فرْتَنَى أو تُرْنى[١] ، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء أو ممن أعتق منهن[٢] ، ولم يكن العربى يعرف لهؤلاء الإماء « مساواة فى الحقوق ولا مساواة فى المعاملة[٣] » . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبغض ما يبغضه العربى أن تلد أمته منه[٤] ، ومن هنا كانوا يستعبدون أولاد إمائهم[٥] ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة ، فإنهم حينئذ يلحقونهم بنسبهم[٦] .

وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظًّا ، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم[٧] . ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شىء ممدوح عندهم ماديًّا كان أو معنويًّا بالبياض[٨] ، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض[٩] ،

---

(٢) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٤١ و ٦٣ و ٦٤ ، وشرح السكرى على أشعار الهذليين ١ / ٤٦ و ٢٣٥ . ومن معانى هاتين الكلمتين « البغى ، والمرأة الزانية » (انظر مادتى « ترن » و « فرتن » فى المعجمات اللغوية) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 168-169.

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 277.

(٤) « إذا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء » (الأغانى ٢٠ / ١٦٥) .

(٥) انظر : الأغانى ٨ / ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١ / ٦٢ .

(٦) الأغانى ٨ / ٢٣٧ ، وانظر المثل على هذا فى إلحاق عنترة بأبيه فى المصدر نفسه / ٢٣٧ ، ٢٣٩ وفى الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) كان لعمرو بن شأس « امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار فكانت تعيره إياه » (شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ١ / ١٤٩) .

(٨) «إذا قالت العرب فلان أبيض ، وفلانة بيضاء ، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ، وإذا قالوا فلان أبيض الوجه ، وفلانة بيضاء الوجه ، أرادوا نقاء اللون من الكلف والسواد الشائن » (لسان العرب : مادة « بيض ») .

(٩) « بيض الوجوه على العدو ثقال » (الفرزدق فى نقائض جرير والفرزدق ١ / ٢٨٧) ، « من كل أبيض يستضاء بوجهه » (جرير فى نقائض جرير والفرزدق ١ / ٣٠١) ، « بيض الوجوه مصانع لسن » (قيس بن عاصم المنقرى فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٤ / ٦٨) .

ومن سِمات جمال المرأة أن تكون بيضاء[١]، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يُمْدح به الرجل أنه ابن بيضاء[٢]، بل إنهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض[٣]. ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر إخوانهم الهجناء ، فسموهم « الأغربة » تشبيهاً لهم بذلك الطائر البغيض المشئوم فى لونه الأسود[٤] ، ونسبوهم فى أكثر الحالات إلى أمهاتهم[٥] .

ويخرج هؤلاء « الأغربة » إلى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذى يبغضه مجتمعهم ، والذى لابد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه ، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم ، ثم إذا هو بعد ذلك يقف صخرة تتحطم عليها آمالهم فى أن يشاركوا فى الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يهيئ لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محتقرة يخدمون فيها سادتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التى يأنفون هم من القيام بها ، أما الأعمال الأساسية فلا يقوم بها إلا أبناء الحرائر[٦] ، فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير « الحلاب والصر » كما يقول أحدهم

---

(١) « مهفهفة بيضاء غير مفاضة » (امرؤ القيس فى معلقته) ، « ومن كل بيضاء رعبوبة » (لمبرد : الكامل /٣٠٥) .

(٢) « هو ابن لبيضاء الجبين نجيبة » (العجير السلولى فى الأغانى ١١/١٥٤ بولاق) .

(٣) رحلنا من الأجبال أجبال طيئ نسوق النساء عوذها وعشارها
ترى كل بيضاء العوارض طفلة تفرى إذا شال السماك صدارها
(عروة بن الورد فى ديوانه /١٧١) .

(٤) فى لسان العرب (مادة غرب) « وأغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة فى لونهم » ، وفى تاج العروس (المادة نفسها) « وكلهم يرى إليهم السواد من أمهاتهم » ويقول أبو عبيدة : «وإنما سموا أغربة لأن أمهاتهم كن سودا » (كتاب الشعراء ، مخطوط، فصل من غلب اسم أمه على اسم أبيه ، ورقة رقم ٣١) .

(٥) انظر كتاب « من نسب إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب ، وانظر فصل « من غلب اسم أمه على اسم أبيه » فى كتاب الشعراء ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٣١ ، والأغانى ٨/٢٤٠ .

(٦) لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
(حماسة أبى تمام ١/٢٥) ، ويقول التبريزى : « يعنى أن أبناء الحرائر هم الصابرون على المكاره فى ابتناء المجد واكتساب الشرف » .

ـ عنترة بن زبيبة الأمة السوداء ـ فى سخرية لاذعة من تلك الأوضاع الاجتماعية التى وضعها السادة البيض وآمنوا بها[١] .

ومع ذلك فقد يبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازاً فى ناحية من النواحى ، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تنتفع به ، فيمحو هذا الامتياز عنه معنوياً سواد لونه ، فيعترف به أبوه ، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ، ليقوم بدوره فى أعمال القبيلة الأساسية ، كما حدث لعنترة الذى أصبح بعد اعتراف أبيه به ، لشجاعته الفائقة فى دفاعه عن قبيلته ، عنترة بن شداد العبسى[٢] .

ولكن لم تكن الفرصة التى أتيحت لعنترة بالتى تتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يغص بهم المجتمع الجاهلى[٣] ، كما أن منهم من كان يرفض تلك الحياة « الهامشية » ، ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعى الذليل المحتقر الذى فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان فى وجه هؤلاء السادة[٤] . وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الذليلة التى فرضتها عليهم ، وخرجوا من حماها ، ليشقوا طريقهم فى الحياة بالأسلوب الذى يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة فى سبيل الحصول على الحق . ومن هؤلاء

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والأغانى ٨ / ٢٣٩ .

(٢) المصدران السابقان : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ ، والأغانى ٨ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) يحاول بعض رواة الأدب العربى أن يحددوا عدداً لغربة العرب ، فبينما يحددهم بعضهم بثلاثة (ابن قتيبة فى الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن الكلبى فى الأغانى ٨ / ٢٤٠ ، وأبو عبيدة فى كتاب الشعراء ـ مخطوطة ـــ ورقة رقم ٣١) ، يحددهم آخرون باربعة (النيسابورى فى لطائف المعارف ـ مخطوطة ـ ورقة ٨٧) ، ويحددهم غيرهم بسبعة (ابن الأعرابى فى المزهر ٢ / ٢٦٩) ، ويحددهم آخرون بأكثر من ذلك (ابن حبيب فى المحبر / ٣٠٧ وما بعدها ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة غرب) ، وعندى أن هذه الإحصائيات لا قيمة لها ، فإن هذا شىء أكثر من أن يحصى ، ويبدو أن المقصود بها هو تسجيل أسماء المشهورين منهم .

(٤) يصفهم النيسابورى بأنهم « سودان شجعان » (لطائف المعارف ـ مخطوطة ـ ورقة رقم ٨٧) .

الأغربة المتمردين تألفت جماعات من صعاليك العرب .

وحين نعود إلى شعرائنا الصعاليك لننظر إليهم فى ضوء هذا « المصباح الاجتماعى » نجد أن طائفة منهم تألفت من هؤلاء الأغربة .

فالسليك بن السلكة[١] السعدى يصفه ابن قتيبة بأنه « أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم »[٢] ، ويصفه المبرد بأنه « كان من غربان العرب »[٣] ، ويصفه النيسابورى بأنه كان أسود[٤] ، ويقدمه ابن قتيبة فى أول ترجمته بأنه « منسوب إلى أمه »[٥] ، ويترجم له ابن حبيب فى كتابه « من نسب إلى أمه من الشعراء »[٦] ، ويصفها ابن قتيبة بأنها « كانت سوداء »[٧] ، ويصفها المفضل بأنها « كانت أمة سوداء »[٨] ، وكذلك يصفها النيسابورى[٩] ، ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية »[١٠] ، ويضعه ابن حبيب بين « أبناء الحبشيات »[١١] .

وتأبط شرًّا من هذه الطائفة أيضاً يضعه صاحب لسان العرب نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابى بين أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب[١٢]، ويضعه ابن الأعرابى فى

---

(١) هى أمه (تاج العروس مادة سلك ، والأغانى ١٨/١٣٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن حبيب : كتاب المغتالين – مخطوطة – ورقة رقم ٨٦ ، والمحبر /٣٠٨ ، والمبرد : الكامل /٢٩٨ ، والآمدى : المؤتلف والمختلف /١٣٧ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/١٧ ، والنيسابورى : لطائف المعارف – مخطوطة – ورقة رقم ٧٦ ، والسيوطى : المزهر ٢/٢٦٩) .

(٢) الشعر والشعراء/ ٢١٤ .

(٣) الكامل /٢٩٨ .

(٤) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٧ .

(٥) الشعر والشعراء /٢١٣ .

(٦) ص ٦ .

(٧) الشعر والشعراء /٢١٣ .

(٨) الميدانى : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .

(٩) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٦ ورقم ٧٧ .

(١٠) الكامل /٢٩٨ .

(١١) المحبر /٣٠٧ و ٣٠٨ .

(١٢) مادة (غرب) . وخطأ ما ذكراه من أنه من الإسلاميين ، فكل المصادر التى بين=

نوادره بين أغربة الجاهلية[١] ، ويذكر Fresnel أنه ابن أمة[٢] ، ويذكر صاحب الأغانى أن اسمها أميمة[٣] ، ولكنه يقول « يقال إنها من بنى القين بطن من فهم »[٤] ، ولعل فى هذا التشكيك الذى يثيره صاحب الأغانى حول نسبتها إلى بنى القين ما يقلل من أهمية هذا الخبر . ومن الحق أن المصادر التى تعرضت لتأبط شرا ، ما عدا تلك المصادر التى ذكرته بين أغربة العرب ، لم تذكر شيئاً صريحاً عن أصل أمه ، على كثرة ما تعرضت لها ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه المصادر صوّرتها فى صورة امرأة غير محترمة ، تؤخذ بول ابنها إذا غزا[٥] ، وتسعى فى قتله ليخلو لها الجو مع زوج تزوجها بعد أبيه[٦] ، وتتحدث هى نفسها بأنها حملت به فى ليلة ظلماء وإن نطاقها لمشدود[٧] ، وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا يحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن هوان المنزلة الاجتماعية لهذه الأسرة[٨] .

ومن الطبيعى أن تكون صلة هؤلاء الأغربة بأمهاتهم أقوى من صلتهم بآبائهم ، وقد رأينا أن أكثرهم قد نسبوا إليهن ، وهى ظاهرة يصح أن نطلق عليها « العصبية النسائية فى حياة أغربة العرب » . ومرد هذا من غير شك إلى إنكار آبائهم لهم منذ أول حياتهم ، وإهمالهم شأنهم بعد ذلك ، فنشأوا فى رعاية أمهاتهم ، أو فى إهمالهن ، لا يرون لهم أحداً سواهن ، فتعصبوا لهن وتعصبن لهم ، ويصرح

= أيدينا – ما عداها – مجمعة على أنه جاهلى ، وكل أخباره تؤيد هذا .

(١) السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٢) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme (Premiére Lettre, p. 108).

(٣) الأغانى ١٨/٢٠٩ ، وأخطأ الأستاذ Brau فى The Ency. of Islam حين ذكر أن اسمها أمينة ، ولم يتنبه لهذا الخطأ مترجمو الدائرة إلى اللغة العربية .

(٤) الأغانى ١٨/٢٠٩ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٥ .

(٦) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/٤٥ .

(٧) المصدر السابق /٤٣ .

(٨) الأغانى ١٨/٢٠٩ ، وانظر أيضاً المرزبانى : معجم الشعراء /٢٢٦ ، والسيوطى المزهر ٢/٢٧٥ ، وانظر لسان العرب وتاج العروس مادة (لغب) .

السليك بأن رأسه قد شاب مما تقاسيه خالاته من ضيم وهوان ومذلة يعجز لفقره عن إنقاذهن منها[١] ، وهو يذكر هذا فى مجال دفاعه عن تصعلكه وفخره به ، مما يشعر بأن هذه « العصبية النسائية » كانت من الأسباب الفعالة فى هذا التصعلك . وتتحدث أم تأبط شرا عن ابنها حديث المعجبة به ، فقد حكى عنها أنها قالت فيه : « إنه والله شيطان ، ما رأيته قط مُسْتَثْقِلا ولاضحكاً ، ولا همّ بشيء مذ كان صبيًّا إلا فعله »[٢] ، وتتحدث عنه مرة أخرى حديثاً تبين فيه كيف حملت به ، وكيف وضعته ، ومدى اهتمامها بتنشئته منذ طفولته الأولى تنشئة قوية[٣] .

ومن هنا أيضاً كثر رثاء قريبات هؤلاء الأغربة لهم ، وحديثهن عن حزنهن عليهم ، فقد رثت السُّلَكَة ابنها السليك بأبيات رائعة تفيض حزناً وتَفَجُّعاً ، تصور فيها مصابها الشديد فيه ، وحسرتها البالغة عليه[٤] ، ورثت أم تأبط شرا ابنها بقطعتين مسجعتين لعلهما تمثلان مرحلة من مراحل أولية الشعر العربى ، لم تنس فيهما أن تصور بطولته وشجاعته[٥] ، وكذلك فعلت أخته رَيطة

---

(١) المبرد : الكامل / ٢٩٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/ ١٢٨ ، ويقول المبرد « وإنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء » (٢/ ٢٩٩) ، وانظر الأبيات كلها وشرحها فى الكامل ٢/ ٢٩٨ وما بعدها .

(٢) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/ ٤٣ .

(٣) المبرد : الكامل / ٧٩ ، والجاحظ : الحيوان ١/ ٢٨٦ ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة (وضع) ، مع بعض الخلاف اللفظى ، وزيادات فى العبارات فى بعض المصادر ، لعلها من صنع الرواة ، رغبة منهم فى إطالة هذه السجعات ، ولعل أصح هذه الروايات رواية الكامل ورواية الحيوان .

(٤) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/ ١٩١ ، ١٩٢ ، وأسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨٣ ، ويقال إنها لأم تابط شرا (المعرى : شرح حماسة أبى تمام – مخطوطة بدار الكتب – ورقة رقم ٥ ، وانظر أيضاً شرح التبريزى ٤/ ١٨٦ و ١٨٧) ، ولكن التبريزى يرجح أنها لأم السليك (ص ١٩٢) ، وتروى فى العقد الفريد (٣/ ٢٦١ ، ٤٢٧) لأعرابى مجهول فى قصة واحدة فى الموضعين ، ولكن يلاحظ أن القصة لا تتفق مع الأبيات ، وبخاصة البيت الثالث (ص ٢٦١) فليس هناك محل لهذا التساؤل فى البيت ما دامت القصة تذكر أن أفعى لدغت ابن هذا الأعرابى فمات .

(٥) لسان العرب ، المواد (قرب – هوف – هيف) .

فقد رثته برجز تحدثت فيه عن مكارم أخلاقه[١] ، وكذلك فعلت أخت حاجز الأزدى ، فقد رثته ببيتين تصور فيهما حسرتها على فقده ، وحيرتها لاختفائه[٢] ، ورثت عَمْراً ذا الكَلْب[٣] أخته جَنُوب بمجموعة من القصائد الممتازة[٤] .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ ، ليشتركوا جميعاً فى العمل ضد هذا المجتمع الذى فقدوا توافقهم الاجتماعى معه ، إما لأنه تخلى عن رعايتهم كما فى حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلى عن حمايتهم كما فى حالة الخلعاء والشذاذ .

٤

الصعاليك والمجتمع القبلى :

الظاهرة المهمة التى تلفت النظر فى حياة صعاليك العرب الاجتماعية هى فقد الإحساس بالعصبية القبلية التى كانت قوام المجتمع الجاهلى ، وتطورها فى نفوسهم إلى « عصبية مذهبية » . وهى ظاهرة من السهل تعليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التى وجد فيها هؤلاء الصعاليك ، فأما الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم ، وسحبت منهم « الجنسية القبلية » ، فكان من الطبيعى أن يفقدوا إيمانهم بكل معانى القبلية ، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التى

---

(١) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة بدار الكتب) لوحة رقم ٨٣ ورقم ٨٤ ، ولسان العرب مادة (رخم) ، وينسب هذا الرجز إلى أمه (ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٢٤٢ مادة رخمان) .

(٢) الأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاق) .

(٣) ينص صاحب الفلاكة والمفلوكين نقلا عن بعض مصادره على أنه من صعاليك العرب / ١١٩ .

(٤) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤١ – ٢٤٦ ، وانظر أيضاً الأغانى ١٩ / ٢٣ ، وحماسة ابن الشجرى / ٨٢ ، ٨٣ مع بعض الاختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات وعددها ، وتنسب بعض هذه الأبيات إلى أخت عمرو « ريطة » (الأغانى ١٩ / ٢٣) وإلى أخته « عمرة » (شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٤) . ولكن هذا الاختلاف فى كل هذه المواضع لا يغير من الفكرة التى نقررها شيئا .

لم يعدلها قيمة فى حياتهم، بل قد ينقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة ، فيوجهون غزواتهم إليها ، كما فعل قيس بن الحدادية لما خلعته قبيلته ، فجمع لهم « شذاذاً من العرب ، وفتاكا من قومه ، وأغار عليهم بهم»[١] ، فنحن هنا أمام حالة شاذة فى المجتمع الجاهلى ، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها . وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم ، بل تكاد تنكر صلتها بهم ، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة .

وحين ننظر فى أخبار صعاليك العرب نلاحظ هذه الظاهرة واضحة تماماً ، وقد رأينا فى غارة قيس بن الحدادية على قومه أنه ألف جماعته من شذاذ من العرب وفتاك من قومه . وفى أخبار حاجز الأزدى أنه جمع « ناساً من فهم وعدوان فدلهم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا »[٢] ، فهو أزدى وهم من فهم وعدوان . وكان الشنفرى الأزدى يغير أحياناً على الأزد فيمن معه من فهم[٣] ، فهو أزدى يتزعم جماعة من فهم ، دون أن يجد الفهميون فى ذلك غضاضة ، وهو يتزعمهم ليغير بهم على قبيلته ، دون أن يجد هو فى ذلك عاراً . وفى أخبار امرئ القيس أنه بعد أن طرده أبوه « كان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيئ وكلب وبكر »[٤] ، فنحن هنا أمام جماعة من الصعاليك تألفت من ثلاث قبائل مختلفة .

ولعل السليك هو الشذوذ الوحيد لهذا الشذوذ ، فقد « كان لا يغير على مضر ، وإنما يغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة»[٥] ،بل إن المسألة عنده لم تقف عند هذا الجانب السلبى ، بل كانت أحياناً تتعداه إلى جانب إيجابى يستخدم فيه مواهبه صعلوكاً فى سبيل قبيلته ، ففى بعض أخباره

---

(١) الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .
(٢) الأغانى ١٢/٥١ (بولاق) .
(٣) الأغانى ٢١/١٣٥ .
(٤) الأغانى ٩/٨٧ .
(٥) الأغانى ١٨/١٣٤ .

أنه رأى طلائع جيش لبكر بن وائل جاءوا ليغيروا على تميم ، فاستغل سرعة عدوه لينذر قومه حتى لايؤخذوا على غرة[١] .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن العصبية القبلية قد تطورت فى نفس السليك من عصبية ضيقة الأفق إلى عصبية ذات أفق واسع ، ترتفع عن العصبية القريبة التى كان تؤمن بها القبيلة فى حدودها الضيقة إلى عصبية واسعة تشمل الجنس كله الذى تنتمى إليه القبيلة ، فهى عصبية من نوع آخر غير العصبية القبلية التى كانت تؤمن بها كل قبيلة ، ويصح أن نطلق عليها « عصبية جنسية » .

ويجب ألا نفهم من هذا أن السليك كان مرتبطاً بقبيلته كسائر أفرادها ، فقد كان يحيا حياته الخاصة ، حياة التصعلك ، خارج قبيلته ، دون أن يرتبط بها فى شىء ، أو يعتمد عليها فى شىء .

وقد نشأ عن كفر صعاليك العرب بالعصبية القبلية ، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » أنهم كثيراً ما كانوا يقومون فى المجتمع الجاهلى بدور يشبه دور « الجنود المرتزقة » عند الأمم الأخرى ، «فما دام هؤلاء الصعاليك لا يعرفون العيش إلا فى ظلال سيوفهم ، وما داموا لا ينتظرون فى حياتهم أى سلام أو أمن ، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان ، ومن هنا كان الأشراف الذين يرغبون فى أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم»[٢].

وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا

---

(١) المصدر السابق /١٣٦ ، والمبرد : الكامل /٣٥٠ ، ٣٥١ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء/ ٢١٥، ٢١٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/ ١٧ ، والميدانى : مجمع الأمثال ١/ ٤٣١. ومع أن المبرد يسوق القصة فى باب يتحدث فيه تكاذيب الأعراب فإن التكذيب ينصب ، كما هو واضح من القصة ، على سرعة العدو الخارقة للعادة ، وهى مسألة لا صلة لها بما نقرره هنا ، وقد ناقشنا مسألة العدو فى الفصل السابق .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 193.

يسمونهم « الصنائع »[١] . وفى أخبار امرئ القيس أنه لما خرج ليثأر لأبيه « جمع جمعاً من بنى بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب ، وخرج يريد بنى أسد» [٢] ، وفى مرة أخرى غزاهم « وقد جمع جموعاً من حِمْيَر وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها» [٣] ، وأنه لما استنصر مرثد الخير الحميرى أمده بخمسمائة رجل من حمير خرج بهم ، وتبعه شذاذ من العرب[٤] ، وفى أخبار زيد الخيل الطائى أنه « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجموعاً من شذاذ العرب ، فغزا بهم بنى عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس»[٥] ، وفى أخبار زُهير بن جناب أنه جمع بنى كلب « ومن تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » ، فغزا بهم بكراً وتغلب[٦] ، وفى أخبار أبى جندب الهذلى أنه خرج ليثأر لأخيه « فقدم مكة فواعد كل خليع وفاتك فى الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا فيصيب بهم قومه »[٧] ، وفى أخباره أيضاً أن بنى لحيان قتلوا جارين له ، فقدم مكة ولما قضى نسكه « خرج فى الخلعاء من بكر وخزاعة ، فاستجاشهم على بنى لحيان ، فخرجوا معه ، حتى صَبَّح بهم بنى لحيان»[٨] ، وفى شعر خفاف بن ندبة إشارة إلى اشتراك الصعاليك فى بعض الغزوات[٩] .

ولعل من أسباب هذا كثرة الصعاليك وانتشارهم فى أرجاء الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى بصورة واسعة ، وقد مر بنا فى الفصل الأول أن النعمان بن المنذر لما طلبه كسرى ، وهرب مستنجداً بقبائل العرب ، نصحه بعضهم بالعودة إلى كسرى ، فإن صفح عنه عاد ملكاً عزيزاً ، وإلا فالموت خير من أن

---

(١) الأغانى ٩/٨١ .
(٢) العباسى : معاهد التنصيص ١/٥ .
(٣) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ .
(٤) الأغانى ٩/٩٢ .
(٥) الأغانى ١٦/٥٢ .
(٦) الأغانى ٢١/٩٦ .
(٧) المصدر السابق /٦٢ .
(٨) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٨٣ ، ٨٤ ، والأغانى ٢١/٦٧ ، ٦٨ .
(٩) الأغانى ٢/٣٢٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢/٤٧١ .

يتلعب به صعاليك العرب ويتخطفه ذئابها فتأكل ما له ، وفى أخبار معبد بن زرارة « أن قيساً أسرته يوم رَحرَحان فساروا به إلى الحجاز ، فأتى لقيطٌ (أخوه) فى بعض الأشهر الحرُم ، ليفديه فطلبوا منه ألف بعير ، فقال لقيط : إن أبانا أمرنا ألا نزيد على المائتين فتطمع فينا ذؤبان العرب»[١] .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنلاحظ أن هذا الأسلوب من أساليب العيش الذى سلكه صعاليك العرب لم يكن إلا صورة من الحياة الاجتماعية التى كان يعرفها المجتمع الجاهلى ، ذلك المجتمع الذى كان يؤمن بأن « الغزو أدرٌ للقاح ، وأحدٌ للسلاح»[٢] . وليس من شك فى أن المجتمع الجاهلى كان يؤمن بالقوة إيماناً جعلها من مقومات حياته ، وجعل الغزو أساساً من الأسس التى يقوم عليها بناؤه[٣] ، « فبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة ، كان التخاصم بين القبائل فى سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوغة بالدم»[٤] يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن يجهل « فوق جهل الجاهلينا»[٥] ، مؤمنين بالظلم وبأن « من لا يَظلم الناس يظلم»[٦] ، وبأن فى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان[٧] ، وبأن « الشهرة بالشر خير من ألا أعرف بخير ولا شر»[٨] .

ولعل عمل الصعاليك « كان استئناساً بعمل القبائل معاً ، إذ كانت حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب ، والفرق بين الصورتين أن عمل القبائل جماعى منظم ، وعمل الصعاليك فردى لا نظام له»[٩] .

---

(١) المبرد : الكامل /٢٧٦ .
(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١ /٢٤٤ .
(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I. p. 247.
(٤) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى /٢٧ .
(٥) عمرو بن كلثوم فى معلقته (التبريزى : شرح القصائد العشر /٢٤٩) .
(٦) زهير بن أبى سلمى فى معلقته (المصدر السابق /١٢٧) .
(٧) الفند الزمانى (التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١ /١٤) .
(٨) الجاحظ : الحيوان ٢ /٩٠ .
(٩) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى /٣٥ .

وخلاصة القول أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد فى المجتمع الجاهلى طائفة الخلعاء والشذاذ ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفةالأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، معتمدين على قوتهم فى سبيل العيش ، شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه ، وإن يكن عملهم فرديًّا فلم يعترف به .